

بودليير و القط

(نشر هذا المقال بمجلة البيان الكويتية

يونيه سنة 1979)



يظل العمل الأدبي دائماً محاولة ، يقوم بها الأديب للتعبير عن شئ يحس به ، أو يدعى إليه . لكنه يجد أنه في كل مرة ، لم يعبر تماماً ، وكما ينبغي ، عما كان يريد ، فيبدأ المحاولة من جديد . وهكذا .. لم يعترف أديب قط بأنه قدم لنا كل ما لديه .

قد يساعدنا هذا على تفسير ظاهرة التكرار ، تكرار الأشكال والموضوعات لدى الأديب الواحد ، ان ربما كانت (المسودة) التي لا يلبث الأديب أن يمزقها بمجرد انتهائه من مرحلة التنفيذ والرتوش هي (أصل العمل الأدبي ، في حين ان التاريخ الأدبي لا يخلو من الإشارة أحيانا إلى بعض الأعمال التي كتبها أصحابها أكثر من مرة . وقد أخبرني أحد أصدقاء الكاتب الفرنسي البير كامى بأن هذا الأخير أعاد كتابة روايته "الغريب" خمس مرات قبل أن يقدم النسخة الخامسة للمطبعة .

المواقع أنه لابد من الاعتراف بوجود (نموذج ما) لدى كل أديب حقيقى ، يظل طوال حياته ، بما يملك من طاقة وأدوات ، فى صراع مستمر لمحاولة تصويره ، والتعبير المكتمل عنه . ومع ذلك ، فليس هذا النموذج إلّا ماسة من زور ، كلما حدق فيها رأى وجها مختلفا عن الآخر ، وربما نفس الوجه مرتين ، وربما أغشاه الضوء فلم ير شيئا على الماطلاق . ولكن الماسة تظل كما هي .

أثناء قراءتى بودليير ، لاحظت فى ديوانه (زهور المشر) ثلاث قصائد مختلفة المضمون ، تحمل عنوانا واحدا هو "المقط" وتساءلت : لماذا لم يضع الشاعر لكل منها عنوانا متميزا ؟ أعدت القراءة مرات وفى كل مرة أحس بأن المساحة بين القصائد الثلاث تضيق وتضيق حتى تكاد ، فى لحظة ما ، تختفى . ويبدو فعلا أن الشاعر لم يكن امامه إلّا أن يطلق هذا العنوان . لأنه يعبر فى الواقع ، عن جوانب متعددة لشئ واحد ذى طبيعة فريدة . وهذه هي وجهة النظر التى سأحاول تفصيلها فيما يلى .

المقصيدة الأولى (:حسب الترتيب فى الترجمات المصاحبة لهذه الدراسة) قصيرة ، وفيها يتحدث بودليير عن قطه الجميل ، الوداع ، ذى الشعر الناعم ، والجسد الملتهب ، والمنظرات العميقة التى تذكره بالمرأة التى يحبها ، وما يحيط بجسدها الأسمر من هواء لطيف ، وعبير خطر !

المقصيدة الثانية :أطول نسبيا ، وفيها يتحدث بودليير عن الطاقة الشعرية لديه ، والتى يشبهاها بالمقط الأليف والشرس فى وقت واحد ،

ومع ذلك فإن ألفته ووداعته وجانبه الخير يطغى على جانبه الشرير .

المقصيدة الثالثة :فهي تصف غرام العلماء والعشاق بالقطط ، التي تشبههم إلى حد كبير في شدة الحساسية ، وإيثار الإقامة في المنازل ، بحثا بأرواحهم وعقولهم عن غاياتها العليا من الحقيقة والجمال .

تبقى المقصيدة الرابعة ، وقد ترجمتها من ديوان آخر بعنوان "قصائد صغيرة منثورة" وعلى الرغم من أنها تحمل عنوان مختلفا هو "المساعة" عينية خطوات (الزمن النفسى) التي سنتحدث عنها فيما بعد .

من الواضح أن القاسم المشترك بين القصائد الأربع هو : القط .. ذلك الحيوان اللطيف الأليف ، الذى ذأنس به فى البيوت ، ونربت عليه فى أوقات الفراغ ، ذلك الحيوان الصغير الذى تسرنا دائما رؤيته وتسعدنا حركاته المسلية .. ذلك الحيوان الناعم الفراء ، ذو العيون الجميلة ، الجميلة بحق ، والتي تتابع فيها الأدلوان !

لكنه أيضا : ذلك الحيوان الشرس ، الغادر ، ذو المخالب الحادة ، والأنياب الصغيرة المقاطعة التى تخدش ، وتجرح ، وتسيل الدم .. ذلك الحيوان المفاجئ الذى لا يمكننا قط من التنبؤ بحركاته ، وبالتالى من الاطمئنان إليه . فقد تنزلق يدنا ونحن ذربت على ظهره ، إلى ذيله مثلا ، فما يلبث أن يستدير بسرعة ووحشية لينهرنا ويخدشنا ، ولما يراعى ما سبق إليه من عطفنا ومودتنا ..

القط إذن حيوان يرمز لطبيعة ذات وجهين ، لا يمكن تصور أحدهما دون الآخر . فهو الحيوان الأليف والناضر ، الأنيس والغادر . إنه المضعف والقوة ، المودة والعدوان ، المخلب المطوى والمنتشر .. والفريد فى هاتين الطبيعتين أن احدهما (كامنة) فى الأخرى . تختفى الأولى بينما تظهر الثانية ، ويحدث العكس بسرعة خاطفة . وهكذا أراد بودليير أن يعبر عن نفسه ، من خلال هذا الرمز ، بأنه (كمون شرير فى طبيعة خيرة) . ومن هذه العبارة المفتاح ، أرجو أن نتابع الآن قصائده فى (القط) .

فى القصيدة الأولى ، يبدأ بودليير بنداء قطه قائلا:

تعال يا قطي الجميل ، فوق قلبي العاشق
واطو مخالب أقدامك
ودعني أسبح في عيونك الجميلة!

وما يبدو هو أن بودليير مدرك تماما هذين الجانبين المتضادين في طبيعة المقط : المقط الجميل ، والمقط ذو المخالب . ومع ذلك فهو يرجوه أن يبعد عنه جانبه الشرير ، ويتقدم ليجلس على صدره ، وفوق قلبه تماما ، بجانبه الخير الوداع ، لكي يسبح في جمال عيونه . وعندما يربت بكفه على رأسه وظهره ، ويحس بالانشوة من لمس جسده الملهب أو (المكهرب) على حد تعبيره ، تتمثل في ذهنه صورة حبيبته ، التي يرى نظرتها مثل نظرة المقط :

عميقة وباردة تقطع وترشق مثل سهم!

وهنا الرغبة والحب ، وفيهما تجتمع الاضداد وتتحد المتناقضات ، فتمتزج اللذة بالألم ، ويختلط النافع بالضرار ، في حس منتش من نبع واحد هو الجمال الأسر ، الذي يطفى بكل سلطانه على النفس والجسد معا .

ثم يأتي المقطع الأخير ، بعد اجتياز التجربة ، فتتميز من جديد الحدود الفاصلة بين الجانبين ، وفي لحظة التأمل الهادئ ، يجد المشاهد أنه كان - وما زال دائما - ضحية لـ :

هواء لطيف ، وعطر خطر
يسبحان حول جسدها الأسمر

قد أترك تحليل الصور الشعرية المكثفة التي تملأ القصيدة ، لكنني أكتفي بالإشارة إليها (عيون المقط المشربة بمعدن وعقيق) ، (الجسد المكهرب) ، (النظرة العميقة الباردة ، التي تقطع مثل سهم) ،

(الهواء اللطيف ، والعطر الخطر اللذان يسبحان حول الجسد الأسمر) ، لأن ما يهمني هنا هو التأكيد على ذلك التضاد في طبيعة المقط ، والذي نجد بودليير على وعى كامل بقانون اتصاله وانفصاله .

أما القصيدة الثانية ، فتبدأ بتصريح مباشر :

فى رأسى ، يتجول
مثلما فى شقته تماما
قط جميل ، قوى ، وادع وفاتن
وعندما يموء لا يكاد يسمع ..

ولكن هذه الوداعة الهامسة ما تلبث أن تفسح مكانا مساويا تماما لزمجرة القط فى المقطع الثانى مباشرة:

على قدر رنته المليئة ، الكتوم
فإن صوته الذى يلطف ، أو يزمجر
ثرى دائما وعميق
وتلك روعته وسره!

لقد سبق ادراك التضاد ، والتعاضى عن جانبه الشرير ، ولكن بودليير هنا يدرك التضاد ، ويبتعد عنه بالمقدر الذى يمكنه أن يراه على نحو أفضل . تماما كما نبتعد عن اللوحة حتى نذكرها فى مجموعها ، ونلمح ما وراء التفاصيل من وحدة . ومن المدهش أن بودليير يصل إلى حقيقة أن الجانبين المتضادين : الحسن والقبيح ، الهادئ والتأثر ، الخير والشرير .. يكمل كل منهما الآخر ، ويثرى به ، وهذا هو السر ! السر فى تحليل التضاد إلى عناصره الأولى ، ثم السر فى ادراك أن كل عنصر منها ضرورى للباقي ، ولا ينبغى أن ينفك عن المجموع .

ثم تستمر المقاطع (من 3 إلى 8) فى وصف الطاقة الشعرية ، المتجسدة عند بودليير فى القط ، بطبيعته التى وصفناها ، وبما تحتوى عليه من (كمون) ينفجر بكل عنفوانه عند الضرورة . ولكن بودليير يصرح بأن قطه - شاعر خير ، بل ربما كان ملاكا ، وأكثر ..

هذا الصوت الذى يقطر ويصفى
فى أعماق الشديدة المظلمة
إنه يخدم أعتى الشرور

ويحتوى على كل ألوان المشطح!

لا .. إنه ليس ذا منشار يقرض

كل شئ فيه ، كما فى الملائك

بارع وموقع للغاية!

من فرائه الأشقر والأسمر

ينبعث عطر ناعم..

وهكذا كلما ابتعد بودليير عن المقط الذى يسكن روحه ، أسهب فى وصفه ، والتعبير عن مواهبه المتعددة ، لكنه ما يلبث أن يقترب منه ، ثم يتحد به فى النهاية ، فإذا المقط ، فى الحقيقة ، هو بودليير نفسه !:

عندما تنجذب عيناي نحو هذا المقط الذى أحبه

كما تنجذبان نحو مغناطيس

ترتدان فى انقياد

وأجدنى أنظر فى نفسى..

إن ما كان ينتظره بودليير هو أن يقضى طفولة سعيدة ، وقد تهيأت له فى البدايات ، أسبابها . ولكن الموت ما لبث أن خطف أباه ، وهو فى السادسة من عمره ، وما كاد يكتفى بحنان أمه ، حتى اضطرتها الحياة أن تتزوج من آخر ، وهو فى السابعة من عمره .. وهنا أحس المقط الوديع بأن أحدا لا يربط على ظهره ، بل إن الزمان يقسو عليه بتقلباته ، حتى إننا نجده يحاول الانتحار ، وهو فى الرابعة والعشرين .. فهل كان أمامه إلما أن ينشر مخالفه المطوية (الكامنة) ويصور ذلك الجانب العنيف الذى عاملته به الحياة ، كما عامله به الموت!

فإذا ما جئنا إلى القصيدة الثالثة ، وعنوانها بالجمع هذه المرة "المقطط" وجدنا بودليير ينقل التعبير إلى مستوى آخر ، أو كما سبق فى البدايات ، ينظر إلى الماسة من زاوية أخرى ، فماذا يرى ؟ يرى أن كلا من العشاق والعلماء - ولنقل نحن الرغبة والعقل - يحبون المقطط ، ويقتسمون معها الحياة فى منازلهم ، أو بالاحرى ، فى صوامعهم ، لأنها تشبههم فى الحساسية ، وإيثار الإقامة المادية فى المكان :

العشاق الملهبون ، والعلماء العاكفون

يحبون أيضا فى عمرهم الناضج

المقطط القوية الوديع .. فخر المنازل

التي تشبههم فى الحساسية ، وإيثار الإقامة..

بينما أرواحهم منطلقة في رحلتها اللانهائية بحثا عن الجمال والحقيقة ، حاملة بجلسة أبى الهول (الانسان + الأسد = القط) الذى يرصد ، فى صمت عميق ، سير الزمن ..
.. حالمين ، بأبى الهول الكبير المستلقى فى أعماق الوحدة

والذى يبدو دائما فى حلم بدون نهاية!

ثم تنتهى تلك القصيدة الأكثر عمقا من سابقتها بنفس الفكرة تقريبا وهى أن ما يبدو فى الانسان من تناقض أو تضاد (العقل والرغبة هنا) يتحد فى لحظة ما .. لحظة صوفية مرصعة بالنجوم :

أصلايهم المخصبة ممتلئة بالشرارات السحرية
وقطع من الذهب ، مثل رمال رقيقة
ترصع بالنجوم .. أحداقهم الصوفية!

ونصل الآن إلى القصيدة الرابعة والأخيرة ، التى نتحدث عن القط ، لكن تحت عنوان آخر ، وهو " الساعة . " وقد يدهش القارئ هذا التباين الملحوظ بين العنوان والمضمون ، ولكن بودليير يسرع فيقول فى البداية أن (المصينيين يرون الساعة فى عيون القط)

الموضوع إذن متعلق بفكرة الزمن ، وهى فكرة فلسفية عويصة على الفلاسفة أنفسهم ! لكن الشاعر يتناولها بكل بساطة ، فى قصيدته المكتوبة بالنثر هذه المرة ، التى تبدأ بحادثة جرت بين مبشر مسيحى وصبى صينى .. وما يريد بودليير أن يقوله هو أن هناك نوعين من الزمن : الأول عام ، متعارف عليه بأنه مقياس للمدة ، مقسم إلى ساعات ودقائق وثوان مضبوط فى سيره ، متساو فى ايقاعه . بينما الزمن الثانى مرتبط بحياة كل انسان ، خاص بقياس لحظات الوعي الخاطفة التى تمر به ، أو على الأصح ، يمر هو بها .. فى إطار هذا الزمن الذى يمكن أن نطلق عليه ، كما فعل برجسون ، الزمن النفسى ، يستطيع الانسان أن يتبين ويدرك نفسه أولا ، ثم الأشياء الأخرى من حوله ، على نحو شديد الموضوع . إنه عبارة عن المدة التى يتألق فيها شعاع الحدى فى النفس عوالم بأسرها .. وباختصار فإنه اللحظة ، أو اللحظات ، التى يكشف فيها الانسان عظمة نفسه □ والمكنوز الحقيقية التى تحتوى عليها روحه .

يقول بودليير:

وبالنسبة لى ، عندما انحنى على قطتى الجميلة فيلين ، ذات الاسم العذب ، التى تعتبر فى الوقت نفسه شرفا لبنات جنسها ، وفخرا لقلبى ، وعطرا لروحى ، سواء فى المساء ، أو فى النهار ، فى الضوء المساطع ، أو فى المظلام الحاللك ، فإننى أرى فى عمق عينيها : الساعة بكل وضوح . دائما نفس الشئ : ساعة واضحة ، كبيرة مثل الفضاء ، دون تقسيمات الدقائق والثوانى .. ساعة ثابتة ، غير مضبوطة على ساعات الميادين ، ومع ذلك فإنها لطيفة مثل نفس ، خاطفة كلمحة عين !.

قد يكون بودليير على حق عندما يقول لنا أنه يرى الزمن فى عيون المقط .. ولكن المؤكد أن المقط .. هو نفسه بودليير . ولنتذكر دائما عبارته :

عندما تنجذب عيناي نحو هذا المقط الذى أحبه
كما تنجذبان نحو مغناطيس
ترتدان فى انقياد
وأجدنى أنظر فى نفسى ..

ترجمتى العربية للقصائد المربعة

المقصيدة الأولى

المقط

تعال يا قطى الجميل فوق قلبى العاشق
واطو مخالب أقدامك
ودعنى أسبح فى عيونك الجميلة
المشرية بمعدن وعقيق

وعندما تربت أصابعى فى مهل
على رأسك وظهرك اللدن
وعندما تنتشى يدي باللذة
من لمس جسدك المكهرب..

.. أرى امرأتى فى الذهن ، نظرتها
كنظرتك ، أيها الحيوان الأليف ،
عميقة وباردة ، تقطع وترشق مثل السهم!

ومن القدمين حتى الرأس
هواء لطيف ، وعطر خطر
يسبحان حول جسدها الأسمر

المقصيدة الثانية

المقط

فى رأسى يتجول
مثلما فى شقته تماما
قط جميل ، وديع وفاتن
وعندما يموء ، لا يكاد يسمع..

وعلى قدر رنته الملينة ، الكتوم
فإن صوته ، الذى يلطف أو يزمجر
ثرى دائما وعميق
وتلك روعته وسره!

هذا الصوت الذى يقطر ويصفى
فى أعماقى الشديدة الظلام
يفعمنى بأشعار غزيرة
ويسكرنى كشراب المحبة

إنه يحمد أعتى الشرور
ويحتوى على كل أنواع الشطح
ولكى يقول أطول العبارات
فليس فى حاجة إلى كلمات

لأ ، إنه ليس ذا منشأ يقرض
فوق قلبى ، آلية الممتازة
يجعل بروعة
أشد أوتارها حساسية ، يغنى..

أى صوت هذا ، أيها المقط الغامض
المقط الملائكى ، المقط الغريب
الذى فيه كل شئ ، كما فى الملائك ،
بارع ، وموقع للغاية!

من فرائه الأشقر والأسمر
ينبعث عطر ذاعم ، وذات مساء
تعطرت منه ، عندما
ربت مرة واحدة عليه .. ليس أكثر من مرة!

إنه الروح المتعود على المكان
يقضى ، ويترأس ، ويلهم..
كل شئ فى امبراطوريته.
لعله جنية ! لعله إله!

عندما تنجذب عيناي ، نحو هذا المقط الذى أحبه
كما تنجذبان نحو مغناطيس
ترتدان فى انقياد
وأجدنى : أنظر فى نفسى..

وأرى فى دهشة
نيران أحداقه الممتعة
والمنارات اللامعة ، والاحجار الكريمة الحية
.. تتفحصنى بثبات!

المقصيدة الثالثة

القطط

العشاق الملتهبون ، والعلماء العاكفون
يحبون أيضا فى عمرهم الناضج
القطط القوية والوديعه ، فخر المنازل
التي تشبههم فى الحساسية ، وايتار الماقامة.

أصدقاء العلم والشهوة
يبحثون عن الصمت ، ورهبة الظلمات
وقد اتخذهم (اليريب) خدامه الجنازيين
وعندما يتمكن من استعبادهم .. يحزنون رؤوسهم!

إنهم يتخذون المواقف النبيلة ، حالمين
بأبى الهول الكبير المستلقى فى أعماق الوحدة
والذى يبدو دائما فى حلم بدون نهاية!

أصدايهم المخبية ممتلئة بالشرارات السحرية
وقطع من المذهب ، مثل رمال رقيقة

ترصع بالنجوم .. أحداقهم المصوفية

المقصيدة الرابعة

الساعة

يرى الصينيون الساعة فى عيون القط!

ذات يوم ، بينما كان أحد المبشرين (المسيحيين) يتنزه فى ضواحي مدينة نانكين Nankin ، أدرك أنه نسى ساعة يده ، وعندئذ سأل صبيا : كم الساعة ؟ فتردد ابن اميراطورية السماء لحظة ، ثم اعتدل مجيبا : سأقولها لك ، ولم تمضى لحظة ، حتى ظهر المصبي ثانية ، وبين يديه قط قوى ضخمة ، وبعد أن نظر طويلا - كما نقول نحن - فى بياض عينيه ، أكد فى حسم : أن نصف النهار لم يحن بعد تماما . وكان ما قاله المصبي حقا . وبالنسبة لى ، عندما انحنى على قطتى الجميلة فيلين ، ذات الاسم العذب ، التى تعتبر فى الوقت نفسه شرفا لبذات جنسها ، وفخرا لقلبى ، وعطرا لروحى ، سواء فى المساء ، أو فى النهار ، فى الضوء الساطع ، أو فى الظلام الحالك ، فإننى أرى فى عمق عينيهما : الساعة بكل وضوح . دائما نفس المشئ :

ساعة واضحة ، كبيرة مثل الفضاء ، دون تقسيمات الدقائق والثوانى .. ساعة ثابتة ، غير مضبوطة على ساعات الميادين ، ومع ذلك فإنها لطيفة مثل نفس ، خاطفة كلمحة عين ! . وإذا ما حدث أن أرقنى شئ ما خلال تأملى فى هذا الاطار اللذيذ ، إذا عثريت دنى لا يطاق ، أو شيطان معوق جاء يقول لى :

ما الذى تنظر إليه بكل هذه العناية ؟

عن أى شئ تبحث فى عيون هذا المخلوق ؟

هل ترى فيها الساعة ، أيها الضانى ، المسرف ، الخامل ؟

فسوف أجيبه بلا تردد :

نعم ، أرى الساعة .. إنها الخلود!

..

ألا ترين ، يا سيدتى ، أن هذه المقطوعة الغزلية تستحق ، فى الواقع ، الثناء والتفخيم مثلك أنت نفسك ؟ لقد أسعدنى كثيرا أن أزرکش هذه المغازلة المصطنعة ، التى لا أطلب فى مقابلها شيئا!

مع تحيات حامد طاهر